

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163 -1112 العدد 15 (2011) : 450 - 460
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الآثار الاجتماعية والثقافية للتصوف
دراسة ميدانية على أفراد ومريدي الطريقة الشيخية بمدينة متليلي بالجنوب الجزائري

سيف الدين هيبة
قسم علم الاجتماع المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

تمهيد:

التصوف في حقيقته مجموعة من المبادئ المتكاملة التي تحكم تصرفات أصحابه في مختلف أوجه حياتهم الروحية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وتطبعهم بطابع خلقي خاص. وقد اهتم التصوف اهتماما كبيرا بالتربية الروحية والتربية الأخلاقية لارتباطهما ببعض ارتباطا وثيقا، فلا حياة روحية دون حياة أخلاقية. ومن الحقائق التي لا مفر من مواجهتها أن الانحلال الأخلاقي يرجع أساسا إلى نقص التربية الروحية.

وأول اهتمامات التصوف بناء الخلق الاجتماعي حيث أنه يطبع الفرد بالسلوك الكريم. ويعمل على إحياء الضمير والشعور بالمسؤولية، ومحاسبة النفس ومراقبة الله سبحانه وتعالى على الدوام، فهو من هذا المنطلق صاحب المثالية الخلقية وحامل لوائها.

لما كانت هذه من واجبات التصوف الأساسية فقد أدى ذلك إلى قيام الطرق من أجل تنشئة المريدين وتربيتهم دينيا وروحيا واجتماعيا عن طريق تهذيب سلوكهم وتنقية نفوسهم بإكسابهم أنماط سلوكية وقيما دينية تتفق مع الأدآب والأخلاق الإسلامية. ولذا نقول إنه يرمي إلى إحياء مثاليات وأخلاق وقيم المجتمع. وهذه القيم والأخلاق هي الرباط بين الناس جميعا. تنمي وتقوي بينهم العلاقات السليمة، وتحقق عوامل الإخاء والصفاء والمودة المتبادلة.

والدراسة الميدانية أظهرت هذه الحقيقة من حيث كون المتصوف إنسانا يعيش حياة عادية يأكل ويشرب ويعمل ويتزوج ويعبد الله ويتعامل مع أفراد مجتمعه الصغير والكبير (الأسرة والمجتمع الكلي) بقواعد وآداب وقيم خاصة به مما جعله يختلف عن غيره في أمر هام وهو نظرته الخاصة لربه ولذاته ولمجتمعه ولكل من حوله وهذه النظرة في حقيقتها منبع حاله وعلاقته بالله القائمة أساسا على الحب الإلهي.

أ- أثر التصوف على العمل:

أكدت الشيخية أن للطريقة الصوفية أثرا على نظرتهم للعمل والغاية منه، متأسين بالشيخ المؤسس للطريقة الذي نادى بالعلم والعمل وابنه الذي من بعده والذي ورث منه البركة (سيدي الحاج بوحفص) الذي كان عالما عاملا، هذا العمل الذي أساسه قصد وجه الله، فنظرتهم للعمل كوسيلة وليس كغاية في حد ذاته.

أما فيما يتعلق بالمال والجاه أو المنصب والمكانة فكل هذا لا علاقة له بالعمل إستنادا إلى بعض آيات القرآن الكريم ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾[1]. و﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾[2]و كان هذا وراء شعورهم بالثقة في الله والإعتماد عليه في الرزق دون ربط الرزق بالعمل: فالعمل أساسه وجه الله أما الرزق فليس أساسه العمل، وإنما هو من عند الله، وإن كان مع ذلك واجبا لأن الله أمر بالسعي والعمل ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون﴾[3].

فالعمل واجب الله تعالى ولكن الرازق هو الله، والعمل سبب ظاهري لا يترتب عليه الرزق، وهو مجال الأعمال الصالحات واختبار سلوكي للإيمان يرتفع الناجح في إجتيازه إلى أعلى الدرجات كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «التاجر الصدوق الأمين يحشر مع النبيئين والشهداء والصالحين»[4].

وهذا الحديث يوضح في جلاء مكانة العمل الخالص لوجه الله، فالعمل يؤدى كسبب ووسيلة للرزق، ويتوجب إتقانه لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب الإحسان على كل شيء...» وقوله: « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[5]

وانعكس شعور المريدين بالثقة بالله والتوكل عليه في عدم الالتفات إلى الظلم الذي يوجه إليهم من قبل الرؤساء أو الزملاء في العمل، بل محاولة الإرتفاع والعلو، هذا الظلم كنوع من التسليم لإرادة الله واعتقادا في أن هذه الأمور ضمن الإختبار الدنيوي حيث يقول الحق تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾[6] واضعين أمام أعينهم أيات القرآن الكريم ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾[7]. بينما نجد الأمر مختلفا تماما في حالة وقوع الظلم على أحد الزملاء في العمل وبصفة خاصة إن كان أحد الإخوان في الطريق إذ نجد اتجاها إيجابيا إزاء الظلم الموجه لأحد الإخوان بتفضيل التدخل لإيقاف الظلم والحد منه مهما يترتب على هذا الأمر من ردود فعل قد تسبب مشاكل لهؤلاء الذين يدافعون عن المظلوم. ومع ذلك هناك أقلية ممن تناولهم البحث رأوا أن الأفضل ترك الأمر لله دون تدخل مع التسليم لمراده. وهذان الاتجاهان يمثلان أحوال المريدين المختلفة في التعامل مع الظلم بصرف النظر عن عدم قبولهم له على العموم. ويمثل الاتجاه الأول منتهى الإيجابية في دفع الظلم مع وجود شعور قوي بالرغبة في التغلب عليه. والاتجاه الثاني يمثل التسليم والتوكل على الله لتحقيق مراده.

ولإظهار اختلاف الصوفي من حيث المفاهيم ونظرته للحياة عن غير الصوفي نذكر بعض أقوالهم السائدة التي تعكس مفاهيمهم الخاصة مثل قولهم: "الفقر لله هو الغنى الكامل".

كذلك اتضح من الدراسة الميدانية لمريدي الطريقة الشيخية إمتلاكهم للعناصر المادية المتمثلة في متطلبات الحياة من الضروريات وحتى الكماليات على الرغم من البيئة الشعبية التي يعيشون فيها والمستوى التعليمي المتوسط وحتى المتدني الذي غلب عليهم. إلا أن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على اختلاف مفهوم التصوف عن مفهوم الزهد الذي جمع بينهما كثير من متصوفة ومحبي التصوف في المجتمع الجزائري.

ويؤكد ذلك أن المتصوف إنسان يعيش حياة عادية إلا أنه كما ذكر "ماكس فيبر" ذا مفاهيم وقيم وأخلاق وأفكار مختلفة ذات تأثير قوي على السلوك[8]

ب- أثر التصوف على الأسرة:

طبيعي أن يكون للزواج والأسرة أهمية خاصة عند الصوفية لأن الزوجة المتفهمة روحيا تسهل مهمة الشيخ مع المريد ولا تكون عقبة تمثل ضغوط الدنيا ومطالبها.

وقد كان نمط الزواج السائد داخل الجماعة الصوفية – وهو المعروف والشائع في فترة الستينات وأوائل السبعينات من هذا القرن – تفضيل ما يعرف "بالزواج الداخلي" وهو الذي يتم فيه زواج أحد المريدين من إحدى بنات أو إحدى قريبات إخوانه في الطريق. إلا أن أواخر السبعينات والثمانينات تفصح عن اتجاه عام بانخفاض نسبة حدوث هذا النمط من الزواج بين أهل الطريق الصوفي، وأهل العرش "قبيلة أولاد سيدي الشيخ" فبدأت تحدث بعض الحالات بذهاب أفراد من الشباب لنمط ثان والمعروف "بالزواج الخارجي" وهذه الظاهرة بدأت تتنامى وتتوسع شيئا فشيئا في المجتمع الشيخي، وهذا كله نتيجة التغير الذي أصاب المجتمع ذاته ككل، بفقدان السيطرة الأبوية تدريجيا – نوعا ما – من حيث عدم الإعتداد بنصيحة الكبار في بعض الأحيان وحب الاستقلالية في القرارات، والاتجاه في اختيار الزوجات من بين زميلات الدراسة أو العمل، وانعكاس هذا الاتجاه حتى على المجال الصوفي. ولعل أولى انعكاساته صعوبة قبول مبدأ التسليم للشيخ من قبل بعض الشباب أو غيرهم، وبالذات المتعلمين منهم عموما، الذين يميلون إلى اعتبار أنفسهم حجة في كل الأمور المتعلقة بذواتهم أو ما قد يعرض لهم من أحداث كما أن انعكاسه الثاني هو عدم قبول تدخل الغير ولو كان الأب أو الشيخ في اختيار الزوجة، الأمر الذي قوي لديهم عبر وسائل الاعلام المرئية والمسموعة عن العلاقات الموصلة للزواج قد تعرضها وسائل الاعلام بالمفهوم التجاري المسيطر على الفن المعاصر.

ومع ذلك أظهرت الدراسة الميدانية تفضيل "الزواج الداخلي"، أولا، للحفاظ على النسب والسلالة أبا عن جد إلى الخليفة "أبي بكر الصديق"، وهو ما يعطي للقبيلة مكانتها الروحية

والاجتماعية والسياسية، وثانيا هذا الزواج يجعل الزوجات أكثر تفهما لأزواجهم وأكثر تقديرا لأحوالهم التي تنتج عن ارتباطهم بالطريق والشيخ وعلاقتهم بالإخوان. والقلة يرون في النمط الثاني فائدة تكمن في إمكانية زيادة عدد المنخرطين في الطريقة بجذب أعضاء جدد من خلال علاقات المصاهرة، وأيضا فائدة "الزواج الخارجي" من الناحية الصحية (الجسدية) للأبناء (الذرية)، والعقلية وحتى الخصائص الأخرى الوراثية من حدة الذكاء والتفوق في المجالات الذهنية "العبقرية"، وهذا أيضا ما هو مستنبط من السنة النبوية، وهنا نجد بعض التضارب في اتجاهاتهم إذ لاحظنا أن كثيرا منهم لا يخفون وجود مشاكل زوجية قابلتهم في حياتهم يرجعون سببها الأول – في رأيهم – إلى اتباع نمط الزواج الخارجي، والسبب الثاني يكمن في عدم أخذ رأي الشيخ في الزواج سواء بالاستشارة أو التبرك به، غير أنه مع ذلك، من الأمور المفضلة لدى المريدين اللجوء إلى الشيخ في حل الخلافات الزوجية ويأخذون بتوجيهه بعد الزواج.

وفيما يتعلق برأي المتصوفة في أثر سلوكهم في الطريق الصوفي على معاملتهم لزوجاتهم، وما يطرأ من تغيرات فقد أجمعوا على حدوث تغيير فعلي وإن دخولهم الطريق الصوفي قد انعكس إيجابيا على معاملتهم لزوجاتهم، وذلك بتلقينهن "العهد" بعد أخذ إذن الشيخ وكذلك "الورد" وأشاروا إلى محاولتهم تعليم الزوجات آداب السلوك الصوفي عن طريق الاقتداء بالزوج في المعاملات اليومية.

وأجمع المتصوفة – ممن تناولهم البحث – أن المطلوب من المرأة هو دورها الأساسي في رعاية البيت وتربية الأبناء بالاضافة إلى أداء العبادات كالصلاة والصيام أما ما عدا ذلك من أوراد وأحزاب وأذكار فهي ليست مطالبة بها. وفيما يتعلق برأي الزوجة في زوجها المتصوف بعد دخوله الطريق تبين في أنهن لم يلمسن أي نوع من التغير لأنهن تزوجن وأزواجهن في الطريق بالفعل، إضافة إلى الترحيب بذهاب الزوج للشيخ والإخوان "وخاصة في المناسبات" وبذلك لم يبدو على الأزواج التغير الواضح في المعاملة الزوجية.

وأوضحت الدراسة عدم تغير دور المتصوف مع زوجته بصورة ملحوظة أو محسوسة في حين أنها أثبتت تغيرا واضحا في شخصية المتصوف المعنوية وكذلك في نظرته للحياة. وما من شك في أن هذا الأمر يقترب من الحالة الطبيعية للمرء، إذ لابد أن يبدأ المريد بتغيير ذاته أولا وهذا يتم بانشغاله بالله وبكل من يذكره بالله سواء الشيخ أو الإخوان أو الزوجة. وهذا الأمر ليس بالسهولة واليسر، بل كما سبق وذكرنا أنه أصعب الأمور مما جعل كثيرا من الصوفية يطلقون على الطريق الصوفي اسم "المجاهدة".

فجهاد النفس بترقيتها من مرتبة إلى أخرى كالترقي من النفس الأمارة إلى اللوامة إلى الملهمة لا يتم إلا بالتخلص من كثير من عيوب النفس وأدرانها واكتساب كثير من الفضائل الأمر الذي

جعل الصوفية يجمعون على أنه يستغرق وقتا طويلا، بل قد يصل مكوث المتصوفة في مرحلة النفس اللوامة ما يقرب من عشر سنوات أو يزيد مما يجعل المتصوف يظل منشغلا بذاته من حيث الإصلاح فترة طويلة، ثم بعد ذلك في مرحلة لاحقة ينعكس هذا التغيير على أقرب المحيطين به (مجال الأسرة) ثم تتسع الدائرة لتشمل المجتمع ككل.

وتتمثل المراحل الثلاث بصورة واضحة من خلال أيات القرآن الكريم فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[9]

والأمر لا يختلف كثيرا فيما يتعلق بانعكاس دور المريد – الأب – على أبنائه، إختلافا كبيرا عن علاقة المريد بزوجته، وإن كانت إحدى أوجه الاختلاف تكمن في الرغبة الباطنة والظاهرة في حث الأبناء على إتباع السلوك الصوفي والسير الحقيقي في الطريق خاصة الذكور منهم، فأجمع من تناولهم البحث على الرغبة الشديدة في إنتماء أبنائهم الذكور للجماعة الصوفية إلا أن هذا لا ينفي وجود التسليم لإرادة الله في هذا الأمر بصورة قد تجعل البعض يحكم عليها بنوع من اللاإيجابية.و أرجع المتصوفة تسليمهم في أمر مثل هذا إلى الآية الكريمة ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[10] وكذلك إلى القول المشهور عن شيخ الطريقة المؤسس، والذي ورثه عنه أبناؤه إلى الشيخ الحالي دعاؤه الذي كان يدعو به لكل أبنائه في النسب والطريق وهو: "اللهم أجعلنا في الجناح السالم " وهذا ما يجعل أصحاب الطريقة الشيخية من الأسر (الأباء والأمهات) يبررون عدم إنتماء أبنائهم ذكورا وإناثا للطريقة الصوفية (وربما حتى إذا انحرفوا أو زاغوا في سن المراهقة فإنهم سيعودون للطريق السوي) كما يقولون في شعار آخر عن الطريقة "أبنائي وإن كانت رؤوسهم خارج الطريق فأرجلهم هي داخله"

ج- التصوف والقدوة:

ويتضح من ذلك أن التغير الواضح الملحوظ في المتصوف يبدو أساسا في تغيره معنويا وهذا ينعكس على سلوكه الذاتي الناتج عن بعض الإشعاعات الفردية المترتبة على بعض التغيرات التي تصيبه في بداية الطريق كالهدوء النسبي عوضا عن "العصبية"، والمودة والرحمة في المعاملة بدلا من "الشدة" وغيرها من الصفات الذاتية التي أثر فيها الطريق بشكل واضح وربما ينعكس أيضا عن ظهور هذه التغيرات كدوافع وأنماط سلوكية في تعامل الصوفي مع أبنائه وقيامه بدور التوعية والارشاد والتنشئة الدينية، وهذا ما يثبت حقيقة التجربة الصوفية كما شبهها "هنري برجسون" بأنها كالشمس ما إن تسطع إلا ويشع نورها لتشمل كل من حولها، وأضاف أن الصوفي ما يكاد يهبط من السماء إلى الأرض – بعروجه في المقامات الصوفية – حتى يشعر بالحاجة إلى أن يمضي إلى الناس يعلمهم ويبلغهم أن العالم الذي ندركه بالأعين وإن كان حقيقيا، فإنه ثمة عالما آخر غيره وليس هذا العالم بالمحتمل أو الممكن فحسب، كما قد يؤدي إلى ذلك البرهان

العقلي، بل إنه يقيني يقين التجربة. فالصوفي الذي يحس بالحقيقة تنحدر فيه من نبعها بقوة فعالة، لن يستطيع أن يمنع نفسه عن نشرها. لذلك يبدأ الصوفية لتحقيق هذا بأن يكونوا هم القدوة وليس المقصود هنا القدوة سلوكيا (خارجيا) بل القدوة نفسيا (داخليا) أيضا، أي القدوة بحالهم الداخلي من مشاعر الحب والإخلاص والرضا ثم انعكاس هذه المشاعر على شخصهم وذاتيتهم من استقرار نفس وطمأنينة وسعادة ثم على سلوكهم ومعاملاتهم فالتجربة الصوفية تحول الحياة الإنساينة وتغير الشخصية مما هو دني وأناني إلى ما هو نبيل ونزيه، والقدوة تعد من أهم الوسائل الثلاثة الأساسية التي بها يتم تحقيق القيم في النفوس الناشئة، فوجود القدوة أمر ضروري للغاية، ومن الخطأ أن يظن إنسان أنه مستغن عنها في مختلف مراحل تطور حياته، لأن الإنسان كائن إجتماعي يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه كما قال ابن خلدون: «الإنسان مدني بطبعه»، ومن الخطأ أيضا بأن الأخلاق الفاضلة تتحقق للفرد أو المجتمع بمجرد سن القوانين وتوقيع العقوبات. وأمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بصحابته قائلا: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[11]. وقد فطن الصوفية إلى هذا المعنى فكانوا يربون بسلوكهم وأفعالهم لا بأقوالهم إذ أن من أهم وسائل التربية المحاكاة، لأن التربية في جوهرها إقتلاع عادات فاسدة من نفس الإنسان ومحاولة تعويده على عادات أخرى حسنة، والقدوة ذات علاقة وثيقة بالدعوة بل تمثل نمطا من أنماطها فهناك "دعوة بالسلوك" وتتم بالاقتداء، ودعوة بالقول وهي قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه تتوقف على علم الداعية واعداده وتأهيله وقدرته على التأثير على غيره وإقناعه بما يدعو إليه. إلا أن التصوف للخاصة وليس للعامة، لذلك فأهله ليسوا في حاجة للدعوة، فالتصوف رسالة موجهة للفرد والمجتمع تعمل على تبصير الناس بالمنابع الحقيقية للدين الحنيف وبذلك تعمل على إصلاح المجتمع.

والذي لا شك فيه أن صلاح الإنسان – المتصوف – الذي هو نواة المجتمع مبشر بصلاح المجتمع وكون الصوفية هم القدوة وحرصهم على تأدية هذا الدور مبشر أيضا باستمرارية وديناميةِ توليهم هذا الدور الايجابي الفعال وانعكاسه على أفراد المجتمع ككل. مما يلقي الضوء على أهمية دور التصوف والطرق الصوفية في صلاح الإنسان وكذلك صلاح المجتمع وهذه تعد الأهمية الأولى والأساسية للتصوف.

د– أثر التصوف في الضبط الاجتماعي:

التصوف من غاياته أن ينشر الخلق القويم بين طبقات المجتمع والخلق القويم هو الدعامة الأولى التي يبني عليها المجتمع أمنه واستقراره فالطريقة لم تضع لأتباعها الأصول في الحياة الدينية فحسب، بل امتدت لتشمل كافةنواحي حياتهم الاجتماعية في مختلف العلاقات بين الشيخ والمريد وبين المريدين بعضهم البعض، وبين المريد ونفسه وأهله وغيرهم من سائر أفراد

المجتمع، كما وضع الصوفية أصولا وقواعد وآداب لتوادهم ومحبتهم وتزاورهم والمشاركة في الأفراح والأحزان وغيرها من العلاقات المختلفة[12] وكل فرد رقيب على ذاته يتمتع بضمير حي محقق الضبط الاجتماعي بنوعيه الضبط الخفي والضبط الظاهر.

الضبط الاجتماعي: وللطريقة دور إيجابي في تحقيق الضبط الاجتماعي وقد وجدت بعض الطرق اهتماما كبيرا لهذا الشأن ومنها الطريقة الشيخية، مما جعلها تضع قانونا خاصا بها يعمل على ضبط سلوك الأعضاء داخل الجماعة وخارجها. ومن ثم يتضح أثر الطريقة الذي لا يمكن إنكاره على الحياة الاجتماعية التي هي بمثابة دعوة لتدعيم المبادىء والقيم الدينية، ونداء للتمسك بالآداب والأخلاق الاسلامية التي لا بديل لها لخلق مجتمع فعال بناء، لذلك لا يقتصر دور الطريقة على حياة العضو الدينية بل تشمل كافة أوجه حياته العملية والأسرية والاجتماعية، فالعضو يلجأ إلى الجماعة لسد كافة حاجاته الدينية والدنيوية ولحل مشاكله المختلفة، لأن الطريقة هي المأوى والملجأ لأعضائها.

* وكان للتصوف دورا كبيرا في الضبط الاجتماعي في كثير من الأقاليم وخاصة التي ينتشر فيها عادة الأخذ بالثأر فكلمة طيبة بسيطة من رجل صوفي ملهم لها فعل السحر في النفوس تقضي على دواعي الشر والفتنة، فإذا بالمتنازعين جميعا إخوة متحابون متآلفون يسعون في سبيل الخير والوئام والصالح العام. وبذلك كان للشيخ تأثير إ يجابي ودور فعال في فض النزاعات وإقامة السلام وتحقيق الأمن والقضاء على التشاحن والتباغض وحل المشاكل على اختلافها سواء كانت دينية أو دنيوية.

وكل هذه الأمور تكون مقومات الأثر الفعال للتصوف والطريقة الصوفية على المجتمع في دفع عجلة الحياة إلى الحركة والتسامي والتقدم لذلك قد يكون ضرورة لا بديل لها في مكافحة الجريمة ومقاومة الإنحراف وإيقاض الضمير وتحقيق الضبط الاجتماعي وتدعيم القيم وترسيخها إذ الطريقة تتغلغل في حياة أعضائها الدينية والاجتماعية والعلمية والتربوية والفكرية، فلا يمكن إغفال دور التصوف الايجابي في تشييد الدولة الاسلامية باعتبار أنه يستقي منابعه من الدين الحنيف وهو الذي ظل حافظا لرسالة الإسلام، يجاهد في سبيلها ويعمل من أجلها، وهو الذي أدرك إدراكا حقيقيا لمعنى الدين، فاحترم مقدساته ونفذ تعاليمه وتولى عبء الدفاع عنه، فقد دأبت الجماعات الصوفية على نشر الدين الإسلامي في القارة الإفريقة منذ ما يزيد على مئة عام ومن أول روادها وأهمهم الفرق السنوسية حيث نشرت الزوايا والمساجد في ربوع صحراء وريف ليبيا وما هو واقع جنوبها ونمت منها الجماعات التي آزرت حركة المقاومة في شمال إفريقيا ضد الإستعمار الفرنسي والإيطالي بكل عناصر الشباب والبطولة. فالطرق الصوفية نشرت الإسلام في آسيا وإفريقيا وحملت رايته إلى كل مكان وكسبت له الملايين وأسست دولة المرابطين والموحدين

لنجدة الأندلس ولحماية المغرب العربي من وثبات الأوروبيين[13].و قد ذكر الجبرتي أن هزيمة الفرنسيين في مصر كانت على أيدي رجال المقاومة الشعبية من أبناء الطرق الصوفية وشيوخها الذين جعلوا من الأزهر والأحياء الشعبية في مصر حصونا منيعة لا تقتحم ومشاعل الثورة لا تخمد نيرانها وكانت الفتوة الصوفية هي النجدة التي يستنجد بها صلاح الدين في الحروب الصليبية كلما مالت الموازين في ساحات القتال[14]و هكذا نلاحظ أن الطرق الصوفية يختلف دورها في المجتمعات باختلاف الظروف الإيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تواجهها، وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على مدى شمولية التصوف وقوته وقدرته على الوفاء بمختلف حاجات المجتمعات مما يتناسب وظروف كل مجتمع وما يحتاج إليه فكانت السنوسية والتيجانية والشاذلية وغيرها من الطرق تكافح من أجل الاستقلال السياسي للإسلام والوطن فبالنسبة للطريقة الشيخية في ثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة الشيخ بوعمامة وتجنيد الشعانبة لذلك وغيرها من القبائل التي كانت تحت السيطرة الدينية والروحية والسياسية لأولاد سيدي الشيخ والطريقة الشيخية وحتى ترسيخ مبدأ الأخوة بين شعوب الصحراء المتناطحة خاصة وأن بعض الحروب كانت سببا في قتل عدد كبير من الناس وإيجاد الفتن. وبذلك خرجت الزوايا من إطارها الديني إلى إطارها السياسي والاجتماعي. وفيما يخص الدور الاقتصادي للطريقة الشيخية فيكمن في حث أعضائها على الصدقات وأداء الزكاة كل بالوسيلة التي يراها ملائمة لظروفه وظروف أهله وأسرته عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «الأقربون أولى بالمعروف»[15]. وبذلك أكد مجتمع الدراسة بالمنطقة تعدد وظائف الطريقة وخروجها من حدود الوظائف الدينية لتشمل الوظائف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وإن كانت في نطاق محدود.

الخاتمة:

يمكن القول أن التصوف تجربة دينية متأصلة في الإنسان بحكم طبيعته وحمله الأمانة منذ بدء الخليقة فقد قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. وجاء في كثير من كتب التفسير ليعبدون بمعنى "ليعرفون" وبذلك كانت المعرفة وهي غاية التصوف هذفا للإنسان بفطرته وإن اختلف أفق المعرفة ونوعها باختلاف مستويات الأفراد. ومن ثم فسعي الإنسان نحو المعرفة إنما هو تطلع للحقيقة التي خلق من أجلها. والمعرفة ليست علما يدرك بالدراسة والتعلم والاطلاع فحسب وإنما يتم الوصول إليها بالذوق عن طريق خوض التجربة الصوفية ذاتيا، وهي تجربة أساسها الأخلاق. فكلما تخلى المتصوف عن صفاته المذمومة وفرغ قلبه من الاهتمام بالأكوان وتحلى بالصفات المحمودة وامتلأ قلبه بالأنوار التي يقذفها الله في قلبه، كلما تحققت له المعرفة التي يطلق عليها الصوفية "التجلي".

وقد اتضح من الدراسة دور التصوف الفعال في التأثير على المريد بتغيير اهتمامه ومن ثم

تغيير قيمه وبذلك يجمع التصوف في المجتمع الجزائري بين "الدين الحركي الديناميكي والدين السكوني الإستاتيكي".

وأظهرت الدراسة الميدانية الأثر الاجتماعي الواضح لدور الطريقة في الضبط الاجتماعي من خلال لجوء المريدين وأهليهم وجيرانهم وأصدقائهم للشيخ بما له من تأثير عليهم لبركته ومكانته المرموقة في كافة المشاكل وأكثرها تعقيدا بهدف بحثها وإزالة أسبابها، وفض المنازعات والتوفيق بينهم، باعتباره أفضل من يتدخل في هذه المسائل وكان هذا اتجاه غالبية من تناولهم البحث.

وأظهرت الدراسة قوة وتأثير الضبط الخفي على المريدين وهو القائم على الضبط الذاتي من داخل المريد والمتوقف على مراقبته لنفسه والالتزام بقواعد الطريقة وآدابها باطنا وظاهرا، فهو بذلك يتضمن نوعي الضبط معا إذ يمثل الضبط الظاهر جزءا منه: فطريق المريد قائم أساسا على علاقته بالله وكل ما دون ذلك ما هو إلا وسائل للوصول للغاية المنشودة، بذلك كان نمط الضبط الخفي أكثر ملاءمة لهذه العلاقة التي ليست في حاجة إلى نمط الضبط الظاهري الذي يحكم باقي العلاقات الدنيوية. فمن استطاع أن يحقق الضبط الذاتي حقق معه الضبط الاجتماعي (الخارجي).

وبذلك فمن أسمى أدوار التصوف –كما أظهرت الدراسة – دوره الروحي الذي يتسع ليشمل كافة الأفراد والمجتمعات. وحتى بالنظر إلى احتمال اختلاف أدوار الطرق الصوفية في المجتمعات باختلاف الظروف الأيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلا أنها جميعا تؤدي إلى ظهور إنسان مختلف من حيث القيم السلوكية والنظرة الاجتماعية في ارتباطه بربه وفي هدف حياته وعلاقاته بمجتمعه الصغير والكبير.

أما عن الأدوار الاجتماعية التي تقدمها الطريقة الشيخية إلى جانب الدور الديني فيمكن أن نجملها – بما توصل إليه البحث – في الأدوار التربوية والتعليمية والنفسية والعلاجية وغيرها من الأدوار كدور التصوف في الضبط الاجتماعي وتحقيق الثبات والاستقرار الاجتماعي من حيث قدرته على التأثير على الفرد للتكيف والتأقلم مع الوسط الاجتماعي أو البيئة التي تفرض عليه فالتصوف قوة دافعة للفرد والمجتمع.

وأما فيما يخص السر في التوافق والتماسك الذي عرفته مدن الجنوب الصحراوي خلال العشرية السوداء (كما تسمى) أو خلال كامل مرحلة الفوضى العارمة التي مرت بها الجزائر، فيعود إلى التفاف الأهالي والسكان من الأتباع والمريدين حول شيخ الزاوية وفق ما تنص عليه آداب التصوف، وما تحويه من وسائل الضبط الإجتماعي وطرق التنشئة الاجتماعية التي تشمل كامل الحياة الاجتماعية من أثر التصوف على العمل والأسرة ودور القدوة فيه .

وخلاصة القول أن الهدف الرئيسي العام للأنثروبولوجيا الاجتماعية يتمثل في الكشف عن

القوانين الاجتماعية وللوصول لذلك الهدف العام والنهائي لابد من تحقيق بعض الأهداف القريبة والتي يجب أن تدور حولها الدراسات الميدانية الحالية والمستقبلية لمثل هذه المواضيع (التصوف والطرق الصوفية والزوايا...) وهي تحديد نماذج للأبنية الاجتماعية وكذلك تحديد مظاهر التكامل والترابط بين النظم الاجتماعية وفي النهاية تحديد عملية التغير الاجتماعي.

الهوامش:

(1) سورة هود، الآية 6.

(2) سورة الزمر، الآية 36.

(3) سورة التوبة، الآية 105.

(4) أخرجه الترمذي و الحاكم عن أبي سعيد الخذري، الفتح الكبير، ص 40.

(5) أخرجه الإمام أحمد و مسلم و الترمذي و النسائي و أبو داود وابن ماجة عن شداد بن أوس النبهاني، الفتح الكبير، ص 341.

(6) سورة الفرقان، الآية 20.

(7) سورة الحج، الآية 38.

(8) أحمد أبو زيد، " ماكس فيبر و الظاهرة الدينية "، عالم الفكر، ص 307.

(9) سورة المائدة، الآية 105.

(10) سورة القصص، الآية 56.

(11) رواه جابر بن عبدالله.

(12) عامر النجار، التصوف النفسي، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص 85.

(13) عامر النجار، المرجع السابق نفسه، ص 84.

(14) أحمد أبو زيد، مرجع سابق، ص 76.

(15) قال السخاوي ما علمته بهذا اللفظ، ولكن قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأبي طلحة: أرى أن تجعلها في الأقربين، كما رواه البخاري في باب إذا وقف أو أوصى لأقاربه عن أنس، أنظر كشف الخفاء للعجلوني ج1 ص 161، وفي اسنى المطالب اشتهر على الألسن: الأقربون أولى بالمعروف، وليس بحديث خلفاً لمن زعم لكن يشهد له قصة أبي طلحة وقوله تعالى: ((يَسأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُل مَا أَنفَقتُم مِّن خَيرٍ فَلِلوَالِدَينِ وَالأَقرَبِينَ)) (سورة البقرة: 215).